المحاضرة الرابعة:

النظرية المثالية في العلاقات الدولية

أولا: التعريف بالنظرية المثالية:

يعتبر التيار المثالي من أقدم التيارات في تحليل العلاقات الدولية، يحسب لصالح التيار المعياري الذي ينطلق من القيم و المعايير الأخلاقية في بناء تصوراته. حيث حاول المثاليون بناء تصور ايجابي للعلاقات الدولية انطلاقا مما يجب أن تكون عليه في ظل حكم القانون و المنظمات الدولية. و رغم ما تعرضت إليه المثالية من انتقادات خصوصا من قبل الواقعيين إلا أن العديد من آمال المثاليين مازالت تطرح من قبل المنظرين إلى يومنا هذا.

ثانيا: نشأة المثالية فى العلاقات الدولية:

تعتبر النظرية المثالية إحدى الاتجاهات المعيارية في تحليل العلاقات الدولية و التي تركز على القيم الأخلاقية المثالية في تصورها للعلاقات الدولية. تعتبر الضمير الإنساني هو الحكم الأعلى في القضايا الأخلاقية، كما تعتبر أن العلاقات الدولية هي علاقات ودية وسلمية، وأن ما يوجد من حروب وصراعات في العالم هو أمر يتناقض مع الفطرة البشرية.

سادت أفكار المثاليين فيما بين الحربين العالميتين (1914 - 1939) – فترة بداية تأسيس علم العلاقات الدولية بوصفها علماً متخصصاً مستقلاً- حيث حاول المثاليون دراسة العلاقات الدولية انطلاقا من تصور ما يجب أن تكون عليه في إطار نظام دولي مثالي قائم على حكم القانون و سلطة التنظيم الدولي و حل الخلافات بالطرق السلمية، و قد أكد المثاليون على نقطتين أساسيتين:

الأولى مكانة **العقل والأعراف والمؤسسات الدولية** بوصفها أدوات لمنع الحروب والصراعات.

و **الثانية** توجيه و تركيز ولاء الأفراد لمصالح جماعية شاملة و مشتركة.

و قد كان من أبرز مفكري المثالية الرئيس الأمريكي الأسبق **وودرو ويلسون** صاحب اقتراح إنشاء عصبة الأمم في إطار المبادئ الولسنية و هي 14 مبدأ قدمت من قبل رئيس الولايات المتحدة **وودرو ويلسون** للكونغرس الأمريكي في تاريخ 8 جانفي 1918، ركز فيها على 14 مبدأ للسلم ولإعادة بناء أوروبا من جديد بعد الحرب العالمية الأولى و أهمها:

- الاعتماد على الدبلوماسية العلنية عن طريق المعاهدات الدولية العلنية وغير سرية.
- احترام حرية البحار في السلم و الحرب.
- إلغاء الحواجز الاقتصادية بقدر الإمكان وإيجاد مساواة بين الدول المتعاونة في المحافظة على السلام.
- تخفيض التسلح إلى الحد الذي يكفل الأمن الداخلي.
- وضع إدارة عادلة للمستعمرات تنفذ ما يحقق مصالح سكانها.
- إنشاء جمعية عامة للأمم (عصبة الأمم) بموجب مواثيق خاصة.

كما يستمد أنصار هذا المنظور رؤيتهم للعلاقات الدولية من الأديان السماوية، والتعاليم والفلسفات الإنسانية التي تهتم بوضع الضوابط والمعايير الأخلاقية العامة للسلوك الإنساني، وتركز على مخاطبة عقل الإنسان وقلبه، واستثارة الجوانب الخيرة في الطبيعة البشرية، بهدف الارتقاء بالسلوك الإنساني، والعمل على أن يأتي هذا السلوك متمشيا مع القواعد الأخلاقية التي تحض على قيم التعاون بدلا من الصراع، و على السلام بدلا من الحرب، و على العدالة بدلا من الظلم.

و قد نشأت أفكار المثالية بعد الحرب العالمية الأولى بعد الآثار السلبية للحرب لتبدأ معها حملة تدريس السياسة الدولية كتخصص في العديد من الجامعات، نتيجة ازدياد الشعور الشعبي بأن الحرب قد طالت حياة الجميع وأن من مسبباتها الأساسية الاتفاقيات الدولية السرية وسياسات بعض الدول والتحالفات التي كانت تعقد. و أن التعصب لصالح الدولة القومية و مصالحها أدى إلى تراجع الاهتمام بالبعد القيمي المعياري للعلاقات الدولية و طالب المثاليون بالمقابل إلى ضرورة إصلاح السياسة الدولية و الاهتمام بالاعتبارات الأخلاقية.

المرتكزات الأساسية للنظرية المثالية: تمحور الفكر المثالي حول مجموعة من المرتكزات لعل أهمها:

أ. **الطبيعة الخيرة للفرد:** أين يعتبر المثاليون أن الإنسان خير بطبعه ميال للتعاون و التصرف بعقلانية وفقا لما تمليه القوانين و الأعراف الوطنية و الدولية، و أن حالة الصراع ليس إلا حالة استثنائية و أن الحلة الطبيعية هي السلام ف:**"الانسان ليس مجبولا على العدوان و ان قانون الطبيعة هو قانون الانسجام و الانتظام"**

ب. **تجانس المصالح بين الدول** Harmony of Interests **:** انطلاقا من مبدأ **"الفرد للجميع و الجميع للفرد"** و انطلاقا من فكرة انسجام المصالح، فالفرد عندما يعمل لمصلحته الذاتية، فإنه يعمل لمصلحة الجماعة، و هو بذلك يحمي مصلحته الخاصة. و في إطار العلاقات الدولية يفترض المثاليون أن وجود مصالح مشتركة و متبادلة بين الدول يؤدي إلى تضامن هذه الدول خصوصا في ظل الاعتماد المتبادل بينها. و من منطلق تطابق أو تجانس المصالح، و على اعتبار أن كل الدول لها مصلحة في السلم، فإن كل دولة تريد أن تعرقل السلم هي دولة غير عقلانية وغير أخلاقية.

ج. **أهمية دور المنظمات الدولية في توجيه السلوك العدواني للدول:** باعتبار الحرب مشكلة دولية مشتركة بين كل الدول فهي تتطلب حسب المثاليين جهودا مشتركة للقضاء عليها و لا يتحقق ذلك إلا عن طريق إنشاء المنظمات الدولية التي تعمل على تحقيق القيم الأخلاقية المثلى و ترعى الأمن و السلم العالميين.

د. **أولوية الأخلاق في العلاقات بين الأفراد:** سواء في المجتمع الداخلي أو بين دول المجتمع الدولي، إذ لابد للفرد من وجوب الخضوع للقوانين والقواعد التي وضعت لخدمة الجماعة.

وقد اهتم التيار المثالي في المجال الأكاديمي بتدريس القانون الدولي و المنظمات الدولية بهدف القضاء على النزاعات الدولية و تنظيم العلاقات بين الدول تحت إشراف المنظمات الدولية خدمة للأمن و السلم العالميين و وتطويرا لسبل التعاون و التفاهم الدولي.

رابعا: مقاربة الأمن الجماعي في العلاقات الدولية:

ارتبط مبدأ الأمن الجماعي بالنظرية المثالية، حيث و انطلاقا من مرتكزات المثاليين حول إمكانية تحقيق السلام في العلاقات الدولية وفقا لسيادة القانون و دور القانون الدولي من جهة، و انسجام المصالح بين الدول من جهة ثانية، برزت الدعوة إلى تأسيس نظام الأمن الجماعي بين الدول كإطار قانوني و مؤسساتي يذود بالدول عن خيار الحرب و ويلاتها. و قد رأى المثاليون بضرورة إنشاء المنظمات الدولية التي تعمل على إحداث التقارب بين الشعوب و الثقافات المختلفة، وتحريم الحرب عبر تشكيل تحالف جماعي للدول الديمقراطية ضد الأنظمة التي تهدد السلم والأمن الدوليين، ونجد من بين المفكرين الذين أشاروا وتحدثوا عن الأمن الجماعي ضمن المثالية ما يلي:

- **"كانط : Kant "**تحدث عن "مشروع السلام" وأنه لا من تأسيس نظام جماعي يعمل على تجسيده وضرورة تقنين العلاقات الدولية كما أنه يشجع قيام الأنظمة الجمهورية الديمقراطية كطريق للحكومة العالمية.
- "**جريمي بنتام** :Jeremy Bentham"دافع عن الأخلاق في العلاقات الدولية، وطرح نظرية الحكومة العالمية التي تتوقع إمكانية وجود مؤسسات مركزية عالمية لها من التأثير والفعالية ما يخولها ضبط المصالح الدولية، ومنع وقوع الحرب.
- "**الفلسفة الويلسونية** : Wilisonianism"رأى ولسن في مبادئه الأربعة عشر أنه لا بد من تشكيل هيئة دولية تعمل في الحفاظ على السلم و الأمن الدوليين.

يتمحور مبدأ الأمن الجماعي حول وضع الآليات القانونية من اجل منع اعتداء دولة على دولة أخرى و قمع ذلك الاعتداء إن حدث، عبر توجيه تهديدات أو باتخاذ تدابير جماعية فاعلة للحفاظ على السلام، وتنفيذها عند الضرورة. حيث أن السلام حسب مقاربة الأمن الجماعي غير قابل للمساومة و لا التجزئة و أن العدوان إذا ما وقع من طرف أي دولة يجب أن يجابه من قبل المجتمع الدولي ككل.

ارتبط نظام الأمن الجماعي بفترة نهاية الحرب العالمية الأولى بحجة عدم قدرة نظام توازن القوى المتعدد الأقطاب في تحقيق الأمن العالمي قبل الحرب العالمية الأولى ، حيث طُرح هذا المفهوم رسمياً من طرف الرئيس الأمريكي "وودر وولسنWooder Wilson"في مؤتمر فرساي 1919. و يتميز مفهوم الأمن الجماعي ب:

- أن مفهوم الأمن الجماعي يهدف إلى منع أي استخدام تعسفي للقوة ضد أي دولة منظمة لنظام الأمن الجماعي، ولاسيما من الدول المعادية التي تهدد السلم والأمن الدوليين.
- يجسد هذا المفهوم ترابطا أساسيا بين: أمن الدولة و الأمن العالمي.
- يعتمد هذا النظام على إجراءات و خطط دفاعية مشتركة بين العديد من الدول في إطار الدفاع المشترك.

- يرتبط الأمن الجماعي بأجهزة دولية قانونية مشتركة منفذة له تمنح لها صلاحيات الحفاظ على الأمن العالمي.

وقد ظهرت أول محاولة رئيسية لإنشاء نظام أمن جماعي خلال نهاية الحرب العالمية الأولى، مع توقيع ميثاق عصبة الأمم تجسيدا لأفكار ويلسن حيث مثلت المادة 10 من الميثاق التي تضمن السلام، مع المادة16 التي تؤمن التهديد بالرد المضاد جوهرَ الأمن الجماعي . و قد طُلب في المادة 10 من كل دولة عضو ضمان وحدة أراضي الدول الأعضاء الأخرى وسلامتها السياسية . و لتأمين هذا الوعد، كانت كل دولة عضو(وفقاً للمادة) 16 بحالة حرب تلقائية مع أي معتدٍ.

و على نفس المنوال تم إنشاء هيئة الأمم المتحدة خلال الأربعينات لتحقيق مجموعة من الأهداف تعكس مبدأ الأمن الجماعي و هي:

1. المحافظة على الأمن و السلم العالميين مع التأكيد على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة إلا إن تجاوزت آثارها النطاق الوطني.
2. منع اللجوء للقوة في فض المنازعات الدولية و التأكيد بالمقابل على الوسائل السلمية من مفاوضات، تحكيم و قضاء دولي.
3. احترام القانون الدولي و العدالة و التقيد بمبادئ القانون الدولي.
4. التسامح و حسن الجوار و حق الشعوب في تقرير المصير.
5. نشر التقدم الاجتماعي و الرفاهية الاقتصادية عن طريق التعاون الدولي في المجالات المختلفة.

و لعل أهم إضافة تم إدراجها لمفهوم الأمن الجماعي في إطار الأمم المتحدة هو طرح مبدأ الأمن الجماعي الوقائي و هو ما نصت عليه المادة الأولى من الميثاق، و منعت المادة الثانية الدول من استخدام أو التهديد باستخدام القوة ضد الدول الأخرى. إلى جانب ذلك فصل الباب السابع من الميثاق الاجراءات التي يمكن أن يتخذها مجلس الأمن من اجل حماية الأمن العالمي.

و حتى بعد نهاية الحرب الباردة و تفكك الاتحاد السوفياتي1989 ، اتسع الإطار المؤسساتي والتنفيذي للأمن الجماعي من خلال التنسيق مع حلف الناتو والمنظمات الإقليمية تماشياً مع التحولات القيمية والبنيوية في النظام الدولي، وبروز العديد من التهديدات الأمنية الجديدة التي تشكل تحدياً كبير أمام تطبيقات الأمن الجماعي. و الأكثر من ذلك فقد اعتقد البعض أن الأمن الجماعي قد بلغ أعلى مراتبه بعد الحرب الباردة خصوصا في ظل الشعارات الأمريكية التي تدعو للسلام، الحرية، الفكر الليبرالي، و معادية الأنظمة التي تهدد السلم و الأمن الدوليين فكانت حرب الخليج الأولى عام 1990 بمثابة تجربة لممارسة الأمن الجماعي في الواقع الدولي، و حرب الخليج الثانية 2003، التدخل العسكري في سوريا و ليبيا مؤخرا و الأمثلة كثيرة. كما ربط الأمن الجماعي ممارستياً بالعديد من المفاهيم الأخرى مثل الأمن الإنساني والإرهاب والتدخل الإنساني.